... وعلى الأرض السّلام

«وظهر بغتة مع الملاك ، جمهور
من الجند السموي مسبحين الله
وقائلين:

المجد لله في الأعالي ...

وعلى الأرض السلام ...

وبالناس المسرة ... »

(لو ٢ : ١٣ ــ ١٤)

ماذا ينشد الناس من وراء العقائد والأفكار ؟؟

سعادة الجنس البشري .. دون جدال

سعادة النفس والروح ، سعادة العقل والفكر ، سعادة الفرد والمجموع ... فمن عجب أن يحطّم الناس السعادة وهم يبحثون عن السعادة ، يحطّمون سعادتهم الحاضرة المقرّة ، من أجل سعادة مستقبلة مرغوبة !

يختلفون ويصطرعون .. وهم يطلبون الراحة والهناء !

آلهة شتى : قد تكون هي الذات أو الأسرة أو الأرض أو الدولة أو الطبقة !! وقد يؤمن الناس بالله الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وإليه المصير ، ثم لايعصمهم الإيمان من الشقاق في تصوّر الإله بين مذاهب شتى !!

ما أحكم الكلمات المنيرة التي أرسلها فيلسوف التاريخ والحضارات الكبير أرنولد توينبي : «... إنّ التائهين في بيداء المجتمع الغربي ، قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذي آمن به أجدادهم - أولئك الذين علّمتهم التجربة الواقعية بأنّ الدولة الإقليمية مثل الكنائس الطائفية أوثان تجلب عباداتها الحرب لا السلام . وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلّق بهدف بديل - هو النظم السياسة الشاذة »[1] .

والسعادة البشرية قبلة الجميع ، وإنما الخلاف في مجال السعادة والطريق إليها ..

وينصف الناس لو بدأوا السعادة من نقطة البدء الصحيحة : من حاضرهم وواقعهم ، من اليوم قبل الغد !!

---

١ - فؤاد شبل : فلسفة التاريخ عند توينبي - (المجلة) ع ٥٨ نوفمبر ١٩٦١ .

ما لهم لا يتّفقون على أن يخلّوا بين الناس وبين عقولهم - يفكّرون دون تشويش ، ويقارنون ويوازنون دون شغب أو فتنة !!

ما لهم لايقصرون خلافهم على ميدان القلم والورق ، فيكون أسلوب البحث عن السعادة هو خير بشارة بالمجتمع السعيد - المجتمع الذي يكون فيه الاحتكام للعقل والبرهان !

ما لهم لا يتّفقون على احترام العقل أساساً قبل الدعوة لأي مبدأ ، وتقديس الحرية في نفس كل فرد بدل انقياد التقليد وولاء العصبية ، وتذكير الناس (بالحياد العلمي) عند التفكير والتقدير !!

وإذا تنكّب دعاة أي مبدأ هذا السبيل القويم ، فما أنكر أن يقترف نفس الخطأ هداة الدين ..

يتشاحنون على الدين ، وهم يبشرون بوحدة الديّان ...

المسيح : إله أم نبي ؟

له طبيعة واحدة (مونوفيزيت) ، أو طبيعتان (ديوفيزيت) ؟

وفي لجاج الجدل ، ينسى الدعاة الهداة الغيورون - أنّ الأرض تغصّ بالذين ينكرون النبوّة والألوهية معاً ، ويكفرون بالمسيح وبالله والمرسلين !!

إنّ الخلاف ليتبدد - أو يتخفف - بالبحث والعلم ، ويتجمد ويتأبد بالشحناء والخصام !!

- **تكاد ترتكز الأديان كلّها على (الإيمان بالله واليوم الآخر)** ... وهو (الإيمان بالغيب) الذي يُمتحن في عصرنا ، بعد أن ثبّت العلم الاتجاه إلى الحسّ والاعتماد فقط على التجريب !

- **والغاية من الإيمان بالله هي سعادة الخلق ، ومن الإيمان بالآخرة هي عمارة الدنيا** .. فالله تعالى غني عن طاعة الطائعين ، ولا تضرّه معصية العاصين ، وإنما يريد لعباده اجتماعاً عليه ليتحابّوا ويتناصفوا !.

لقد خلق الله الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه : يعلم أشواقه (للغيب) وتطلّعه لما وراء الحسّ .. يعلم نزوعه إلى الخضوع لقوّة مهيبة تملأ عليه نفسه وعقله وحواسه ، وتكون أكبر من كل ما يعرفه ويلمسه - بل ويتصوره .. ويعلم أنّ دافع الخضوع لهذه القوة الكبرى هو الذي يهدهد دافع التسلّط والسيطرة من الإنسان على الإنسان .. ويعلم أنّ قاعدة (الجزاء) هي العقدة التي تحكم ضوابط النفس وتعين الضمير على الرعاية والرقابة ... فلا عجب أن يوجّه الله عباده إلى الإيمان بالإله والجزاء ، ليعمّق في النفوس جذور العدل والإحسان ، ويعين الناس على مجاهدة أنانية النفس بطاعة الربّ ، وعلى الجدّ في تعمير الدنيا ابتغاء الآخرة ...

«لا يؤمن أحدكم ... حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه» [1] .

ومن هنا تثرى المثل الإنسانية من المسيحية ثراء عظيماً ...

فالله .. محبة ، وكفى !!!

- **وشعائر العبادة في أي دين من الأديان وسائل - لا غايات** ، وهي مدرسة للطاعة وطابع للجماعة ، لكنها لا تقصد لذاتها وإنما لما تطبع عليه النفوس : «ربّ قائم حظّه من قيامه السهر ، وربّ صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش! » [2]

---

١ - رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وصححه السيوطي في الجامع الصغير.
٢ - الطبراني وأحمد والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن ، ورواية أخرى لابن ماجه - صححها السيوطي في الجامع الصغير.

وللمسيح هجمات بارعة لاذعة موفقة ... على الشكول والطقوس !! والحقّ أنّ (الفريسيين) ليسو اسماً لطائفة بقدر ما هم علمٌ على نوع ، وهؤلاء المظهريون الجامدون يصدّون الناس عن الدين ، فلا يستفيدون منه ولايفيدون !

- **وشرائع الدين لا ترتكز على الحروف بل على الضمير** ... والحق أنّ أزمة البشرية دوماً ليست في (المقدرة التشريعية) ، لكنها في الأعماق النفسية للمشرع والمنفّذ والقاضي والمتقاضي - على السواء!

ولقد كان المسيح مكمِّلاً للناموس حقًّا إذ دفع البشرية إلى أفق أرحب من التعامل مع النصوص والألفاظ وحدها .. لقد أعطى قوالب التشريع حرارة الضمير ، وسما بالناس إلى أن يكون الواحد منهم قاضي نفسه - حسب رقابة الله الذي في الخفاء ! .

- **وأديان الله كلها دفعة للحياة .. وليست (قوالب مجمَّدة) !!**

إنها أصول وجذور ، تتفاعل مع نفس الفرد وروح العصر ، فتنبثق عنها حضارات متباينة ، وأفكار متطوّرة ..

إنها نقطة البدء وإشارة الطريق ، وليست النهاية والختام .

فليس غريباً أن يصدر عن روح المسيحية ألوان من الفكر الديمقراطي بعد استثارتها للإيمان بالله ، وهو الذي يستوي الخلق أمام جلاله ..

«... وقام ليقرأ ، فدفع إليه سفر إشعياء النبي ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه : روح الربِّ عليّ ، لأنه مسحني **لأبشّر المساكين ، أرسلني**

لأشفي المنكسري القلوب ، لأنادي للمأسورين بالإطلاق ، وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين في الحريّة !! » (لو ٤ : ١٦-١٨) .

وليس غريباً أن يصدر عن روح المسيحية ألوان من الفكر الاشتراكي ، بعد أن صوّرت كلماتها الملتهبة الثروات المكدّسة أغلالاً يجرجرها الأغنياء فتثقل خطوهم نحو الخلاص ، وأغرتهم أن يتملّصوا من هذه الأعباء : فيرتدّ الفائض عن الفرد عائداً على المجموع : «هلّم الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة! غناكم قد تهرّأ ، وثيابكم قد أكلها العثّ ! ذهبكم وفضتكم قد صدئا ، وصدأهما يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار ! قد كنزتم في الأيام الأخيرة - هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المنحوسة منكم تصرخ ، وصياح الحصّادين قد دخل إلى أذني ربّ الجنود ! قد ترفّهتم على الأرض وتنعمتم وربيتم قلوبكم كما في يوم الذبح ! حكمتم على البار .. قتلتموه ... لا يقاومكم » (يعقوب ٥ : ١-٦) .

صرخة مخلصة من أجل العامل ضد طغيان رأس المال !

حسب الأديان أن تكسب في النفوس هذه الروح الحيّة ، ليحيلها الفكر الإنساني - في مراحل تطوّره - فلسفات محدّدة ، وتشريعات مقنّنة ...

وتمضي الأطوار .. وتفسح فلسفة مكانها لأخرى ، ويحلّ تشريع محلّ تشريع ، ويبقى الدين الخالد روحاً ملهمة ، ونوراً هادياً ..

وهكذا يدأب الفكر في كل جيل على أن يصل إلى ما يظن أنه مفهوم الدين ، فإذا بالجيل التالي يرى غير رأي سلفه ويجد أمامه شوطاً وأشواطاً في مجالات النظر والعمل ، ولا يلبث أن يجد أزياء الفكر الماضي لم تعد تتسع لمفهوم الدين في العصر الجديد !!

إنّ أرسطو قد أجاز الرقّ ، فما كان ليستطيع أن يتصوّر علاقة اجتماعية اقتصادية غير هذه العلاقة ..

ثم جاء المجتمع الإقطاعي ، وأصبح أقنان الأرض sefdom صورة جديدة تسعف وتغني في تنظيم العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ..

وجاءت الآلة ... فزالت الحاجة للرقيق والأقنان ، وأصبحت الحاجة أمسّ لأن تنقل السفن المواد الخام والوقود من المستعمرات وتنل المصنوعات إلى الأسواق - بدلّ من أن تنقل جحافل العبيد ! واحتاجت المصانع إلى العمال ، لا إلى الرقيق أو الأقنان !!

فهل كان يُنتظر من المسيحية - أو من أي دين طويل العمر - أن يتعرّض لهذه الصور المتعدّدة ، التي حدثت عبر الأجيال المتطاولة ، بالنص والحرف ووضع النقط فوق الحروف ؟؟

إنّ الدين يُجمّد نفسه حين يحصر نفسه في حدّ لا يتعدّاه ، ويصبح كأي نصّ تشريعي معرّض للإبطال بذهاب مقتضاه !! لكنه يخلد ، ما دام ينفث في النفس روح الإنسانية والحياة ، ويقيم مزاجاً ينفر من الجَوْرِ - إذ يؤمن بالله ...

ومن انعكاسات (الدين) في أغوار الضمير ، يأتي استنكار العقل الإنساني ، للرقّ في وقت ، واستنكاره للإقطاع في وقت ، واستنكاره لطغيان الرأسمالية على مصالح العمال وأهل المستعمرات !!

ولا يُتَطَلَّبُ من الدين أن ينصّ على استنكار علاقة بذاتها ، بقدر ما يُتَطَلَّبُ ذلك من (الفكر المتديّن) .. فالمؤمنون بالدين هم الذين عليهم أن يفطنوا إلى التناقض القائم بين واقع مجتمعهم وأصول عقائدهم . ومن الإنصاف ألا ننتظر منهم ذلك قبل أن ينضج مفهوم الدين في رءوسهم ، ويتحرّروا من شتى الضغوط على عقولهم ، ويستطيعوا أن يخطّطوا مستقبلاً أفضل - يرون في طاقتهم أن يصنعوه .

ولا تنكشف هذه الغشاوات إلا على مراحل من عمر البشرية ، تسلخها الأجيال - مؤمنوها وكافروها - حتى تستبين للناس الظلمات من النور . وحين تنكشف هذه الغشاوات ، يكون المؤمنون المتديّنون أسرع إلى الخير ، وأخلص للحق ، وأصبر على الكفاح ، وأحرص على التقدّم نحو الكمال .

والإسلام والمسيحية يتفقان فيما قدّمناه كله ..

فأين يختلفان ؟؟

- **يختلفان في علاقة المسيح بالله - أو فكرة التثليث !**
- **ويختلفان في واقعة صلب المسيح - أو فكرة الخلاص !**
- **ويختلفان - طبعاً - في الحكم على نبوّة محمد ودين الإسلام .**

والخلاف بين المسيحية والإسلام خلاف حقيقي قائم ، ليس الصواب أن تصطنع له المسوح والدهون لتغطّي الشق وترأب الصدع !!

وإنما أريد أن أقول :

- **إنّ قضية الخلاف يجب أن تعرض أولاً على العقل ، لا أن تركد تحت ضغط التقاليد .**
- **إنّ العقل المتحرّر إذا انتهى إلى الاقتناع برأي ، فلا ينبغي أن يفسد اختلاف الرأي للودّ قضية .**
- **إنّ الدين الخالص أزهد المبادئ في اصطراع الإنسان مع الإنسان ، أو تأبيد الفرقة والشقاق ...**

والكفر - في نظر الدين - خطأ ناشئ عن تعمّد الإنكار مع سبق الإصرار ، لأنّ معنى الكفر (ستر الحق) ... وهذا موقف مخالف لموقف كثير ممن يوصفون (بالكفّار!) .

ولنبدأ بالخلاف حول **أولهية المسيح** ...

المسيح عند المسلمين نبيّ ، أي شخص غير عادي ، تعرّض لنفحات من روح الله في (أصل الخلق) ثم في (سرّ الوحي) : ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء : ٨٧] .

والمسلمون يقرأون في كتابهم ثناء الله على المسيح ، وعلى مريم ، وعلى الحواريين ... وهم لا يذكرون المسيح - شأنهم مع كل الأنبياء - إلا بالصلاة والتسليم !!

والمسلمون يتفقون مع المسيحيين في الإيمان بالله - عموماً - واليوم الآخر .

ويتفقون معهم في أنّ الدين دعوة للحياة بالمثل العليا الفاضلة في كل مكان ... وليس مجرد طقوس مطمورة في زوايا المعابد ...

والمسلمون يتفقون مع المسيحيين على أنّ هدف الدين تقرير الإخاء البشري ، وتحقيق التقدّم الإنساني ...

فهل الذين يتفقون في هذا كله - يعزّ عليهم أن يتعاونوا على إقامة المجتمع المتديّن الفاضل ، والدفاع عن (التديّن) كقضية فكرية إنسانية كبرى ؟؟

إنّ المسلمين الذين يكرّمون المسيح (نبيّ الله) ، أقرب للمسيحيين من الذين ينكرون الألوهية والنبوّة على الإطلاق ، ويحاربون المسيحية والإسلام وكلّ الأديان!! والمسيح نفسه يقرر ذلك :

«أقول لكم : كلّ خطية وتجديف يغفر للناس ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ! ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له – لا في هذا العالم ولا في الآتي » (مت ١٢ : ٣١-٣٢، مر ٣ : ٢٨-٢٩) .

والمسلمون الذين يرون أن المسيحية قد دخلت عليها أفكار غريبة عنها ، لا يذهبون في هذا أبعد مما ذهب إليه فلاسفة مسيحيون كبار ...

تقرأ للفيلسوف الإنجليزي العظيم برتراندرسل Bertrand Russel في كتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية History of Western Philosophy .

«... وأخيراً أرسل الإله الأسمى – ابنه ليحلّ مؤقتاً في جسم (يسوع) الإنسان ، كي يحرّر العالم من تعاليم موسى الخاطئة .. (؟!!) وإنّ من يعتنقون هذا الرأي أو ما يشبهه ، ليدمجونه – عادة – **في فلسفة تسودها الصبغة الإفلاطونية !! وقد مرّ بنا أنّ أفلوطين قد وجد شيئاً من العسر في هذا الرأي** . وإن الغنوسطية لتقع في مكان وسط بين الوثنية الفلسفية وبين المسيحية ، لأنها بينا هي تكرّم المسيح من جهة تراها تسيئ الظنّ باليهود من جهة أخرى . ويصدق هذا نفسه – فيما بعد – على المذهب (المانكي) الذي كان وسيلة القديس أوغسطين للوصول إلى العقيدة الكاثوليكية ، وكان المذهب المانوي يجمع بين عناصر مسيحية وعناصر زرادشتية ... وقد ساعدت أمثال هذه المذاهب المتوسطة مساعدة كبرى في تحوّل المثقفين الذين يتكلّمون اليونانية تحوّلاً تدريجيًّا إلى الدين المسيحي ، غير أنّ العهد الجديد يحذر المؤمنين الصادقين من أمثال هذ المذاهب ..

وظلت الغنوسطية والمانوية تزدهران حتى أصبح الحكم في أيدي المسيحيين ، وبعدئذ انتهى بهما الأمر إلى إخفاء عقائدهما ، وإن يكن قد بقى لهما تأثير تسري عوامله في الخفاء . واصطنع (محمد) مذهب شعبة من الشعب الغنوسيطة – وأنصار هذه الشعبة يقولون : إنّ (يسوع) مجرد إنسان من البشر ، وإنّ (ابن الله) قد هبط

عليه عند تعميده ثم تركه ساعة العذاب (؟!!) وهم في تأييدهم لهذا الرأي يرجعون إلى النص : (يا إلهي لماذا تركتني) !! **ولابدّ من الاعتراف بأنّ المسيحيين قد وجدوا صعوبة في تفسير هذا النصّ دائماً** ! أما الغنوسطيون فقد رأوا أنه مما لا يجوز (لابن الله) أن يولد وأن يكون رضيعاً ، ثم لا يليق به فوق ذلك كله أن يموت على الصليب ، وقالوا : إنّ هذه الأشياء إنما حدثت ليسوع الإنسان لا (لابن الله) السماوي !! وقد اعترف محمد بنبوة يسوع لكنه لم يعترف بإلهيته ، وكان متأثراً بصالح طبقته (طبقة الأنبياء) حين قال إنه لايجوز للأنبياء أن ينتهوا إلى خاتمة سيئة (؟!!!) ، ولذا اعتنق رأي فرقة غنوسيطة يذهب إلى أن الذي صلب مجرد شبح !

وبمقدار ما اصطبغت المسيحية بالصبغة الهيلينية باتت لاهوتية ، ذلك أنّ اللاهوت اليهودي كان دائماً بسيطاً .. ولا تزال هذه البساطة اليهودية تميّز بصفة عامة الأناجيل المختصرة (أناجيل متى ومرقص ولوقا) ، لكنها زالت بالفعل عن إنجيل القديس يوحنا حيث اتّحد المسيح (بالكلمة) - كما وردت في أفلاطون وعند الرواقيين ، فلم يعد المبشّر الرابع من مبشّري الأناجيل يهتم (بالمسيح الإنسان) بقدر اهتمامه بالمسيح الذي هو شخصية لاهوتية ، وهذا الكلام أكثر انطباقاً على (الآباء) .. وكذلك تشتمل رسائل بولس على كثير من اللاهوت خصوصاً فيما يتعلّق بالخلاص ، وتدل تلك الرسائل كذلك على إلمام واسع بالثقافة اليونانية ...

ولبث التأليف بين الفلسفة اليونانية والكتب المقدسة يحدث متفرقاً وكما اتفق ، حتى جاء (أوريجين ١٨٥ : ٢٥٤م) ، وقد عاش - مثل فيلون - في الإسكندرية التي ظلت منذ نشأتها إلى سقوطها المركز الرئيسي للعلماء الذين يحاولون التوفيق بين مختلف المذاهب ...

وعلى الرغم من أنّ أوريجين قد اعترف به أباً من الآباء ، إلا أنه فيما بعد ذلك قد اتّهم بالخروج على الدين في أربعة أشياء : (١) في اعتقاده وجود الأرواح قبل مولد

أصحابها وهو رأي أفلاطون . (٢) وفي اعتقاده أنّ الطبيعة البشرية للمسيح قد كانت قائمة قبل حلوله في الجسد ، وليس الأمر في ذلك بمقتصر على طبيعته الإلهية . (٣) وفي اعتقاده أنّ أجسادنا عندالبعث ستتحوّل إلى أجساد أثيرية خالصة . (٤) وفي اعتقاده أنّ الناس جميعاً - بل والشياطين كذلك - سيصيبها الخلاص في آخر الأمر ! »[1] .

فالفيلسوف رسل لا يستبعد تسرّب مؤثرات فلسفية إلى العقيدة المسيحية ، وإلى الإسلام أيضاً في رأيه .

والفيلسوف الفرنسي Leon Gauthier أكثر تصريحاً في أثر تلك المؤثرات على فكرة التثليث :

«كان أفلاطون أول من أدرك المشكلة ، وأول من أدرك الحلّ الذي وجب على العقل الإغريقي - بعد إنضاجه طويلاً - أن يجتمع نهائيًّا عليه ... أعني عقيدة الثلاثة أقانيم أو التثليث ..

ومن السهل إدراك الغرض منها : فللاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغيّر ، وضع بينه وبين العالم وسيطين دونه ، وخارجين عنه على نحو ما ، داخلين فيه أي تتضمنهما ذاته ، صادرين عنه ، دونه في الكمال ، ويجعلان ممكناً أن يصدر عن الله العالم الكثير التغير ... أوّل الوسيطين العقل ، وثانيهما الروح الإلهية ...

وهكذا لم ينتج التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الإغريقية ، فلسفة فقط بل دينا - أعني المسيحية التي تشرّبت كثيراً من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان ! ذلك أنّ اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الأفلاطونية الحديثة ، ولذا نجد بينهما مشابهات كبيرة وإن افترقا في

---

١ - برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية - (الترجمة العربية للدكتور زكي نجيب محمود) - ج٢ ص ٣٧ : ٤٢ .

التفاصيل ! فيرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة أقانيم واحدة فيهما . أول الأقانيم : الله مصدر كل كمال وفي وحدته كل الكمالات - ودعاه المسيحيون الآب ، والثاني : الابن وهو الكلمة ، والثالث : هو دائماً الروح القدس . على أنه يجب أن يلاحظ وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحي عن الإفلاطونية الحديثة أن الأقانيم الثلاثة ليست في نظر المذهب متساوية في الجوهر والرتبة ، بينما هي متساوية عند المسيحية»[1] .

ولست حين أورد هذه الكلمات أنتصر لكل ما جاء فيها ، بل حسبي أن أخرج منها بأنها لم تُبغّض (رسل) Rnssel أو (جوتييه) Gautheir إلى قلوب المسيحيين ، فهل يكون بدعاً أن نرى أنفسنا - نحن المسلمين المؤمنين بنبوة المسيح - أولى بالألفة والمودة !

وهذا إميل لودفيج يقول عن المسيح :

«ويعدّ الجميع المعلم الجديد نبيّا ، ويبدو المعلم الجديد نبيًّا ، ولم يفكّر يسوع في أنه أكثر من نبي ، وليس بقليل أن يرى نفسه في بعض الأحيان دون النبي ! ولم يحدث أبداً من يسوع ما يخيّل به إلى السامع أنّ له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم ، وما كان يسوع ليذهب إلى أبعد من ذلك فيّدعي أنه المنقذ المنتظر ! فإذا ما قال الناس إنّه أحد قدماء الأنبياء راقه ذلك ، موجّهاً أفكارهم إلى ملكوت السموات ، وإذا ما قال إنه ابن الرب كان ذلك محمولاً على أنه ابن الرب كجميع الذين يشعرون بانطواء أنفسهم على القوى المبدعة التي يشتق منها وجودنا ! والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه : إنه ابن الإنسان ! وقديماً أراد

---

١ - ليون جوتييه : فقرة من كتابه : المدخل إلى الفلسفة الإسلامية ترجمها الدكتور محمد يوسف موسى وألحقها الشيخ محمد أبو زهرة بهامش كتابه محاضرات في النصرانية ص٣٣ - ٣٥.

الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوّة الواسعة التي تفصلهم عن الله ، فكانوا يسمّون أنفسهم بأبناء الإنسان ، ومن هؤلاء دانيال وحزقيال - اللذان أظهرا الرب مخاطباً كل واحد منها بابن الإنسان ، أي بآدمي ضعيف هالك ولد ليفنى بعد ألم ، ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب »[1] .

ثم نأتي لفكرة الخلاص ...

إنها فكرة فلسفية تجعل عمل المسيح مكفّرا لخطية آدم ، مطهّراً للبشرية من وزرها ...

والقرآن يقرر مغفرة الله لهذه الخطيئة منذ أيام آدم : ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ .....﴾ [البقرة: ٣٥ - ٣٨].

والإسلام لم يرفض واقعة الصلب لأنها (خاتمة سيئة لطبقة الأنبياء!!) - كما يظنّ الفيلسوف العظيم رسل ! .. فالأنبياء إن صحّ أن يقال عنهم إنهم (طبقة) ، فهي طبقة دائبة على التضحية بالنفس في سبيل الحق الذي تؤمن به : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة : ٧٠] !! والقرآن مليء بمثل هذه الإشارات إلى قتل الأنبياء !!

---

١ - لودفيج : ابن الإنسان - ترجمة عادل زعيتر ص٩٥.

ومن هنا لا يستغرب الإسلام أن يُسعى بالمسيح ليصلب ويقتل ، والاتفاق تام مع المسيحية حتى بدء حدوث الواقعة نفسها ، وقد يستمر الاتفاق بعد حدوث الواقعة على تأويل بعيد - لا يُخرج صاحبه عن نطاق الإسلام على أي حال - ونعني القول الذي يأخذ من آيات القرآن الدلالة على انتفاء حدوث الموت نتيجة الصلب ، لا انتفاء حدوث الصلب نفسه : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

والعبرة في الصلب ليست في مجرد حدوث واقعة من الوجهة التاريخية على صورة معينة أو حدوثها على صورة مغايرة !! وإنّما العبرة بالنتيجة المستخلصة من وراء الحادثة ، ونعني بها فكرة الخلاص ...

لا يهمنا أن نناقش فكرة الخلاص كفكرة فلسفية ودينية ، وإنما يهمنا أن نناقش مداها ، وإلى أي حدّ يصل هذا المدى في التفريق بين المسلمين وبين المسيحيين ..

فكرة الخلاص في المسيحية لا تذهب إلى تقرير (امتيازات) لطائفة من الخلق لمجرّد أنهم مسيحيون ، ولمجرد أنّ المسيح قد كفّر عن الخطيئة الأصلية .. بل لابدّ من أن يعمل المسيحي بتعاليم المسيحية كي يحقّق لنفسه الخلاص : «ليس كل من يقول لي يا رب يا ربّ يدخل ملكوت السموات ! بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات ... كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم : يا رب يا رب ، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟؟ فحينئذ أصرّح لهم : إني لم أعرفكم قط ! اذهبوا عني يا فاعلي الإثم !! » (مت ٧ : ٢١-٢٣ ، لو ١٣ : ٢٥-٢٧) .

ولقد رفض المسيح أن يجيب أم تلميذيه إلى طلبها بأن يجلس ابناها عن يمينه ويساره في ملكوته : « ... وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعدّ لهم من أبي » (مت ٢٠ : ٢٣ ، مر ١ : ٤٠) .

كذلك قطع بولس الطريق على كل من يتعلّل بالخلاص ثم لا يعمل : «أيها الإخوة : إن انسبق إنسان فاخذ في زّلة ما ، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ، ناظراً إلى نفسك لئلا تجرّب أنت أيضاً . احملوا بعضكم أثقال بعض ، وهكذا تمّموا ناموس المسيح ، **لأنه إن ظنّ أحد أنه شيء وهو ليس شيئاً فإنّه يغشّ نفسه! ولكن ليمتحن كل واحد عمله ، وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره ، لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه** » (غلاطية ٦ : ١-٥)!!

«نحن مقدّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة .. فبعد ما قدّم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله ... **فإنّه إن أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق ، لاتبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف ، وغيره نار عتيدة التي تأكلّ المضادين** » (عبرانيين ١٠) .

ويعقوب يلحّ في أنّ العمل الصالح هو ثمرة الإيمان الصحيح :

«ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال ؟ هل يقدر الإيمان أن يخلصه ؟ إن كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوت اليومي ، فقال لهما أحدكم : امضيا استدفئا واشبعا ، ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد - فما المنفعة ؟ هكذا الإيمان أيضاً ، إن لم يكن له أعمال - ميت في ذاته . لكن يقول قائل : أنت لك إيمان وأنا لي أعمال ، أرني إيمانك بدون أعمالك ، وأنا أريك بأعمالي إيماني . أنت تؤمن أن الله واحد - حسناً تفعل ، والشياطين يؤمنون ويقشعرون ! ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت ؟ ألم يتبرر إبراهيم أبونا

بالأعمال إذ قدّم إسحق ابنه على المذبح ؟؟ فترى أن الإيمان عَمِلَ مع أعماله ، وبالأعمال أكمل الإيمان ، وتمّ الكتاب القائل : فآمن إبراهيم بالله ، فحُسب له برّا ودُعي خليل الله . ترون إذن أنّه بالأعمال يتبرّر الإنسان لا بالإيمان وحده . كذلك راحاب الزانية أيضاً ، أما تبرّرت بالأعمال إذ قبلت الرسل وأخرجتهم في طريق آخر! **لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت ، هكذا الإيمان أيضا بدون أعمال ميت**» (يعقوب ٢ : ١٤-٢٦) !!

ومن هنا لا يكون الخلاص فلسفة تبريرية تفاؤلية وحسب ! .. إنّ المسيح كم ذكّر الناس بملكوت الله وملكوت السموات ، ولم يتركهم للأماني العريضة بل وضع أيديهم على الباب والطريق : «ولما سأله الفريسيون : متى يأتي ملكوت الله ؟؟ أجابهم وقال : لا يأتي ملكوت الله بمراقبة ، **ولا يقولون هو ذا ههنا أو هو ذا هناك ، لأن ها ملكوت الله ... داخلكم** » (لو ١٧ : ٢٠-٢١) .

والمسلمون عندهم فكرة شفاعة رسول الإسلام فيهم يوم القيامة ... ففي الحديث «.. وأعطيت الشفاعة ... »[1] .

غير أن لهذه الشفاعة في الإسلام حدوداً لا تتعدّاها : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ** وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء : ٢٧ ، ٢٨] ، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ **إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ** حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ : ٢٣] ، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن **يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ**﴾ [النجم : ٢٦] .

---

[1] - البخاري ومسلم والنسائي وصححه السيوطي في الجامع الصغير : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء ...إلخ)

وحديث الشفاعة في هذا المعنى صريح : «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون **لو استشفعنا على ربنا ليريحنا من مكاننا** .. إلخ »، «آتي تحت العرش فأخرّ ساجدًا ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع رأسك واشفع تشفّع ... **قال : فيحدّ لي حدّاً ، فأدخلهم الجنة**» [1] ...

غير أن هذه الشفاعة لها أثرها وقدرها في مغفرة الله للخطايا والذنوب . يقول ابن حزم في مقدّمة التوحيد لكتابه المحلّى : «وأنّ شفاعة رسول الله في أهل الكبائر من أمّته حق ، فيخرجون من النار ويدخلون الجنة .. عن أنس بن مالك أنّ نبي الله قال : (لكل نبي دعوة دعاها لأمته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله : (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لايموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم الله إماتة ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ... إلخ) [2] .

وتختلف فكرة الشفاعة عند المسلمين عن فكرة الخلاص عند المسيحيين ، من الناحية الفلسفية ومن ناحية النتيجة الأخروية . ولكن تضيق بينهما شقة الخلاف في المجال العملي في الحياة الدنيا !

فالمسلمون والمسيحيون ينبغي عليهم أن يعملوا ولا يتواكلوا ، وفكرة الشفاعة أو فكرة الخلاص لن تغني عنهم من الله شيئاً إن اجترحوا السيئات وأصروا على ما فعلوا وهم يعلمون !

---

١ - ابن كثير في سياق تفسير آية ٢٥٥ من سورة البقرة.

٢ - المحلى ج١ (طبعة المنيرية) ص١٦، ١٧ - في مفتاح كنوز السنة : أن الأحاديث حول الشفاعة في الكبائر مروية في الترمذي وأبي داود ومسند الطيالسي.

والمسلمون والمسيحيون هم يقين في رجاء مغفرة الله ورحمته ، إلا أن للمغفرة والرحمة مجالاً لا يخدش عدل الله من أجل تكريم محمد أو المسيح !!! ... فلا يشمل هذا المجال الانحراف الجوهري الأصيل ، الثابت المطّرد ، في الفكر والعمل ! ولا خطر بعد ذلك أن تبقى فكرة الشفاعة وفكرة الخلاص على تمايزهما وتباينهما : في الأساس والمدى ...

«ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته بني الإنسان جميلة لا ريب ، وتستحق ما كتب فيها دراسة من نواحيها الشعرية والخلقية والفلسفية ، فإن المبدأ الذي قرره الإسلام من أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأنَّ كل امرئ يوم القيامة مجزيٌّ بأعماله - إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ ، يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن... »[1] .

وإذا كان المسلمون يكرّمون المسيح كنبي من أنبياء الله ، فليس في وسع المسيحيين أن يتخذوا نفس الموقف من **محمد رسول الإسلام** ...

ومع تسليمي بهذه العقدة القائمة ، فإنها لا تسوّغ أي قطيعة فكرية أو نفسية أو اجتماعية بين المسلمين والمسيحيين .

إنّ الأناجيل تورد في ثنايا نبوءات المسيح : «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرين » ، «حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هو ذا هناك فلا تصدّقوا ، لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكي يُضِلُّوا لو أمكن المختارين أيضاً »، «فقال انظروا لا تضلّوا ، فإنّ كثيرين سيأتون باسمي قائلين إني أنا هو والزمان قد قرب ، فلا تذهبوا وراءهم » (مت ٢٤ : ١١ ، مر ١٣ : ٢١-٢٢ ، لو ٢١ : ٨) !!

---

١ - دكتور هيكل : حياة محمد - المقدمة.

والقول بقيام أنبياء كذبة بعد المسيح لا يمنع من (البحث الموضوعي الأمين) في دعاوى الرسالات بعد المسيح ، حتى يتبيّن الصادق من الكاذب والصحيح من الزائف ! فالمسيح قد تكلم عمن جاءوا قبله ، فوصف بعضهم بأنهم سراق ولصوص ، ولا يعني هذا طبعاً خلو الزمان قبله من النبوءات الصادقة الصحيحة : «الحقّ الحقّ أقول لكم : إنّ الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولصّ ، وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف ، لهذا يفتح البواب والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها ، ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته ، وأما الغريب فلاتتبعه بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء !! هذا المثل قاله لهم يسوع ، وأما هم فلم يفهمُوا ما هو الذي يكلّمهم به ، فقال لهم يسوع أيضاً : الحقّ الحقّ أقول لكم : إني باب الخراف ، جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص ، ولكن الخراف لم تسمع لهم ! أنا هو الباب ، إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى . السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك ، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل . أنا هو الراعي الصالح ، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف ، وأما الذي هو أجير وليس راعياً ، الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلاً ويترك الخراف ويبدّدها .. أما أنا فإني الراعي الصالح ، وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني ، كما أنّ الآب يعرفني وأنا أعرف الآب ، وأنا أضع نفسي عن الخراف » (لو ١٠ : ١-١٥) .

وما أدقّه من ميزان ذلك الذي نصبه المسيح ليفرّق بين الأدعياء والأصلاء : «السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك ، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل ... والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف ، وأما الذي هو أجير وليس راعياً الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلاً ويترك الخراف ...» والمسلمون يرحبّون بهذا الميزان ... لتعرض عليه سيرة نبيّهم ورسالته !

وقد ألمعنا في تقديم هذا الكتاب إلى إشارة المسيح التي تستحق التأمل :

«إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، **وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد** - روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ... **وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم ... ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي في الابتداء** ... لكني أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، **لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم** ، ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة » (يو ١٤ : ١٥-١٧ ، ٢٦ ، ١٥ : ٢٦-٢٧ ، ١٦ : ٧-٨)!!

والاختلاف حول الأنبياء ، وتمحيص شخصياتهم ورسالاتهم ، أمر واجب في كل حين ، وقد تعرّض لذلك المسيح نفسه : «ولما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً : من يقول للناس إني أنا ابن الإنسان ؟ فقالوا : قومٌ - يوحنا المعمدان ، وآخرون - إيليا ، وآخرون - أرميا ، أو واحد من الأنبياء . قال لهم : وأنتم من تقولون إني أنا ؟ فأجاب سمعان بطرس وقال : أنت هو المسيح »، «وخرج هذا الخبر عنه في كل اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة ، فأخبر يوحنا تلاميذه بهذا كله . فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع قائلاً : أنت هو الآتي أم ننتظر الآخر؟ »، «فقال قوم من أهل أورشليم : أليس هذا هو الذين يطلبون أن يقتلوه ؟ وها هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً : ألعل الرؤساء عرفوا يقيناً أنّ هذا هو المسيح حقًّا ، ولكن هذا نعلم من أين هو ، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو »، «فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي ، آخرون قالوا : هذا هو المسيح ، وآخرون قالوا : ألعل المسيح من

الجليل يأتي ؟ ألم يقل الكتاب إنه من نسل داود من بيت لحم - القرية التي كان داود فيها - يأتي المسيح ؟ فحدث انشقاق في الجمع لسببه » (مت ١٦ : ١٣-٦ ، مر ٨ : ٢٧-٢٩ ، لو ٧ : ١٧-١٨ ، ٩ : ١٨-٢٠ ، يو ٧ : ٢٥-٢٧ ، ٤٠-٤٢) !!

وقد كتب الأستاذ عبدالوهاب النجار في كتابه (قصص القرآن) : «جاء المسيح عليه السلام ليبشر بهذا النبي الكريم (محمد) ... كان يعبر عن المبشّر به بلفظ النبيّ ، وبلفظ فارقليط - وهو تعريب لفظ (بيريكلتوس) اليونانية .. قلت للدكتور كارلو نللينو المستشرق التلياني وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة : ما معنى بيريكلتوس ؟ فأجابني بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المعزّي) ! فقلت : إني أسأل الدكتور كارلو نللينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة .. فقال : إن معناه (الذي له حمد كثير) . فقلت : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد ؟ فقال نعم !! فقلت : إن رسول الله من أسمائه أحمد ... »[1] .

وكتب الأب لويس برسوم الفرنسسكاني : «البارقليط كلمة يونانية معناها المحامي والشفيع والوسيطي والمعزي ، هو **الأقنوم الثالث** من الثالوث الأقدس ، روح الحق - بل الحق بالذات ، مساوٍ للآب والابن في الجوهر .. يعلن يسوع الرسل بأنهم لن يكونوا وحدهم في تأدية الشهادة له ، إذ يكون بجانبهم يؤدي ذات الشهادة وعن طريقهم من هو أقوى منهم : الروح القدس ... غير أنّ يسوع يذهب أيضاً ليرسل لهم الروح القدس - المعزي الذي وعدهم ، والذي من اختصاصه تأهيلهم للرسالة الشاقة التي أناطها بهم ... لن يرشدهم روح الحق إلى جميع التعاليم التي علّمهم إياها يسوع إبّان حياته الأرضية فحسب ، بل

---

١ - عبدالوهاب النجار : قصص الأنبياء (الطبعة الثالثة) ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ والهامش.

وإلى جميع التعاليم التي لم يعلّمهم إياها ، حيث إنه سيرشدهم إلى معرفة الحق جميعه ويخبرهم بالمستقبلات أيضاً . ومن هذه الحقائق ولا شك تلك التي تتعلق بالأسرار وارتداد الأمم وتأسيس الكنيسة وإدارتها ... إنّ الروح القدس لايتكلم من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع من الآب والابن - بسبب وحدة الطبيعة الإلهية بين الأقانيم الثلاثة »! على أنّ الأرثذوكس يعتقدون أنّ الروح القدس ينبثق عن الآب وحده ، لا الآب والابن ، ويخالفهم الكاثوليك في ذلك ويحاجّونهم : «بأي سلطان إذن يرسل يسوع الروح القدس؟؟ »[1] .

بوسع المنصف أولاً أن يبحث البحث الجاد في حقيقة الإسلام ، فليس من دين يصدّ أهله عن البحث والنظر ...

وبوسع المنصف أخيراً أن يعتبر محمداً داعية خير ورشاد - إن لم يعتبره نبيًّا مرسلاً ، يؤكد أساس الإيمان بالله واليوم الآخر ، ويدعو لمكارم الأخلاق ، ويقيم شريعة لا تتنكّر لأصل من أصول الشرائع الإلهية ، ولا لمبدأ استقام أمام الفكر الإنساني .

لقد سجّل التاريخ بأصرح عبارة ، تقدير المسيحيين في مصر والشام للمسلمين ، وإيثارهم لهم على الروم البيزنطيين المسيحيين ...

فلنقرأ ما كتبه مؤرخ إنجليزي مسيحي هو الدكتور ألفرد . ج. بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) ، وهو يورد فيما يكتبه نصوصاً نقلها من المؤرخ المسيحي أبي الفرج (١٢٢٦ - ١٢٨٦م) - وهو مسيحي يعقوبي صار أسقفاً فبطريقاً لطائفته وله (تاريخ الدول) بالعربية و (تاريخ الكنائس) بالسريانية :

---

[1] - لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ص ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ - ١٧٨ .

«... في سنة ٦٣١ ذهب الإمبراطور (هرقل) إلى هيرابوليس ، وبدأ فيها تحقيق ما كان يرجو إنقاذه من توحيد الكنيسة . واختار أثناسيوس رئيساً لأسقافة أنطاكية وجعل قيرس رئيساً لأساقفة الإسكندرية ...

وكان الأمر في بلاد الشام على ما كان عليه في مصر ، إذ أخفق سعي الإمبراطور هناك فأراد حمل الناس على ما أراد بالاضطهاد ...

قال أبو الفرج : (ولما شكا الناس إلى هرقل لم يجب جواباً ، **ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلّصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المرّة** . على أنّ كنائسنا لم ترجع إلينا ، لأنّ العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان في يدها عند فتحهم للبلاد) ! وإنه لمن المحزن أن يقرأ الإنسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب ، وزعمهم أنّ ذلك كان تخليصاً لهم ساقه الله إليهم ليخرجهم به من حكم إخوان لهم في المسيحية !

وهكذا نجد أيضاً مطراناً نسطوريًّا - بعد أخذ دمشق بخمسة عشر عاماً - يقول في كتابه : (وهؤلاء العرب الذين أعطاهم الله السلطان في أيامنا لا يحاربون دين المسيح ، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلّون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا) ! ...»

أما الدولة البيزنطية فقد ذاق رعاياها المسيحيون المخالفين لمذهبها ألوان الاضطهاد المرير على أيدي رجالها :

«وابتدأ الاضطهاد الأعظم بعد مجمع الإسكندرية الذي عقده قيرس في أكتوبر سنة ٦٣١ .. جاء في كتاب ساويرس : (لقد كانت هذه السنين هي المدة التي حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر ، وقد فتن في أثنائها كثير من الناس لما نالهم

من عسف الاضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذي كان يوقعه هرقل بهم لكي يحوّلهم على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية ، فكان يعذّب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم) ! .. كان أخوبنيامين - البطريق - ممن عُذّبوا ثم قتل غرقاً ، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلّطت نارها على جسمه فأخذ يحترق (حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض) - كما يقول ساويرس أسقف الأشمونين القبطي الذي كتب تاريخ حياة البطارقة - ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخُلعت أسنانه ثم وضع في كيس مملوء من الرمل ، وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذ هو آمن بما أقرّه مجلس خلقيدونية !! ... فعلوا ذلك ثلاثاً - وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر ، فمات غرقاً !!!

ووضعت على مصر حماية الإسلام .. تعلوا أحزابها جميعاً ، فأدّى ذلك إلى تنفّس الناس في عباداتهم واختيار ما يشاءونه في تدينهم ... وأصبح القبط في مأمن من الخوف الذي كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة ، فعادت الحياة إلى مذهب القبط في هذا الجو الجديد - جوّ الحرية الدينية . وما لبث أن صار مذهب الكثيرة الذي يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد ، وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك ، وأنفذ قضاءه بأن كتب زماناً لبنيامين - البطريق - وأقرّ عودته . وقيل إن الذي حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنويتوس (أو هو شنودة) .. ولكن الموضع الذي كان به بنيامين كان مجهولاً لا يعلم به أحد ، ولا يعرفه شنودة نفسه ، وعلى ذلك كان لابد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه - وكانت صورته كما يلي : (أينما كان بطريق القبط بنيامين - نعده الحماية والأمان وعهد الله ، فليأت البطريق إلى ها هنا في أمان واطمئنان ، ليلي أمر ديانته ويرعى أهل ملّته) ..

إذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه ، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم ، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان . وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فكّ من قيدهم في أمور الدنيا وأرخى من عنانهم ، وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حرّ وأمر طليق .

وقد يقال : إنّ حكامهم الجديدين قد أدخلوا إلى الأرض دينا غريباً غير دين المسيح ! وهذا حق ، غير أنهم لم يروا في ذلك إلا عدلاً من الله ، إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا : (ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون ، إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر وما أنزله بالقبط وملّتهم على يد قيرس ، فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر) – هكذا كان الناس يرون ، وهكذا كانوا يحكمون »!![1]

وحول المعنى نفسه كتب باحث إنجليزي آخر هو الأستاذ توماس أرنولد ، في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) The Preaching of Islam :

«وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبي أن يحبّذ – فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر – ما كان قد كتبه إخوانه في الدين ، وأن يرى إصبع الله في الفتوح العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون !!!

إن الجيش الإسلامي حين بلغ وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : (يا معشر المسلمين : أنتم

---

١ – بتلر : فتح العرب لمصر – (ترجمة فريد أبو حديد)– ص ١٣٨ – ١٤٢، ١٥٣ – ١٥٦، ١٦٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧.

أحبّ إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ! أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا !! وغلّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أنّ ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وعسفهم !!!

لقد كان خوف الناس من أن يكرههم الإمبراطور على اتباع مذهبه ، يجعل الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم بالحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية ! ولم تكد المخاوف الأولى التي أثارها نزول جيش فاتح في بلادهم تتبدّد حتى أعقبها تحمس قوي لمصلحة العرب الفاتحين !

أما ولايات الدولة البيزنطية التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة !! ... اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعاً لإثارة أي احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو إثارة أي تعصّب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة ، حتى لا يؤذي ذلك الشعور الإسلامي . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح - **الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع (!)** - من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها ... »[1] .

هكذا استقبل المسيحيون الإسلام والمسلمين في ديار مصر والشام .. وعاش المسلمون والمسيحيون معاً ...

امتزجوا وتفاعلوا ، وصهرتهم الأحداث ...

---

١ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام - (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وعابدين والنحراوي)- ص ٥٣ وما بعدها.

- امتزاجاً لا يهمل قدر الدين ، فهؤلاء وهؤلاء متدينون ...

ولا يقوم على النفاق والمداهنة ، فهذا ما لا يرتضيه الإسلام ولا ترتضيه المسيحية ...

- وإنما يأتي التجاوب من أعماق النفس ...

ويأتي التفاهم من الأصول الفكرية التي قررها المسيح ومحمد - اللذان أبلغا رسالة الله إلى الناس كي يُسعدوا دنياهم بهدي دينهم .. لا ليشقوا أنفسهم بالفُرقة والشقاق !

«إنّ الدين والتدين لأحوج إلى السلام الديني في حياة الأديان ذاتها منهما إلى أشياء أخرى ، تثبت بهما معالمها في الوجود .

وأما حاجة الحياة إلى الإسلام الديني فعلى قدر ما تعاني من آثار الحرب المدنية ، على اختلاف صنوفها وميادينها ، ثم ما عانت في تاريخها الطويل من الحرب الدينية - سافرة حيناً ، ومقنّعة تارة ، ومؤججّة لأسباب الحرب المدنية ..

لا أحسب أنّ قسوة التجارب الماضية تبعد هذا السلام إلى حدّ الاستحالة - بل هو ممكن - وإن أعوزه غير قليل من الشجاعة : شجاعة القوى المتكتلة فردية واجتماعية ، ومثل هذه القوى الشجاعة - شجاعة النفوس في مقاومة أهوائها وأخطائها ... »[1] .

والقرآن يرسي القواعد الفكرية والعملية للسلام الديني المنشود :

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة : ٦٨] .

---

١ - أمين الخولي : مقال (سلام ديني يحتاج إليه الدين والحياة) - العدد الخامس من المجلة ما يو ١٩٥٧ .

- ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
- ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ..... وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ .... وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ .... وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].
- ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ .... وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمۡۖ ....

ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ ....

لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ ....

لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡۖ ....

ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

- ﴿.... لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ..... ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤

فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ .... جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

وبعد :

فلقد وعى التاريخ صورة نفسية معبّرة ، لمسلم لو وزن إيمانه بإيمان أمته لرجحها - كما شهد له نبي الإسلام ...

هذا المسلم المؤمن الصادق الغيور ، قد اتسع أفقه فعرف أنّ قضية (التدين) عموماً قضيته .. فاندفعت عواطفه تظاهر المسيحيين الروم ، في صراعهم مع الفرس المجوس عباد النار ، في الديار المقدسة من أرض الشام .

كان يتابع جهادهم ، ويشدّ على أيديهم ، ويفرح لانتصاراتهم ، على تنائي الديار ..

حتى إذا ربح الفرس الجولة وخسرها الروم ، أبت مشاعره الملهمة التسليم بالهزيمة .. فاندفع يراهن على أنّ الروم سوف ينتصرون ، ولو بعد حين !!.

وينتظر المسلم المؤمن الصادق الغيور على أحرّ من الجمر ، مترقباً تحقّق نبوءته وكسب رهانه ...

ويسجّل القرآن هذا الموقف الكريم ، ويبشّر نبي الإسلام المؤمنين بفرحة النصر للمتدّينين - عن قريب :

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝﴾ [الروم : ٢ - ٦] ....

وبطل القصة .. هو المؤمن الأول ، والخليفة الأول : أبو بكر الصديق - رضي الله عنه !

إن المتدينين جميعاً ، يحسنون للإنسانية ويكسبون كثيراً للإيمان لو بذلوا كل جهودهم لإقرار (الحقيقة) في العقيدة دون اعتساف ، و (الفضيلة) في الدين - دون تزمت !!!

ويوم يبدأ الانتصار للدين بأهواء العصبية ، فقد بدأ العمل للدين من طريق (اللادين) !!!

والدين لا يأتي ليرفع عن الناس حواجز وسدوداً من نوع ، ليقيم حواجز وسدودا من نوع جديد ... إنه لا يرفع حواجز الطبقة والسطوة والعصبية ، ليشقى الناس بحواجز أخرى من حزازات الدين والمذهب والطائفة !!

ويوم ينصف المتدينون في فهم (الدين) والدعوة له ، يسخر المسيحيون من استغلال المسيحية السمحاء لخدمة مصالح الرجل الأبيض في أفريقيا وآسيا ، ويسخر المسلمون من تستر الاستعمار وراء الإسلام في بعض الأحيان !!

ويومها يُسرّ المسلمون لو انتشرت المسيحية انتشاراً نزيهاً سليماً بريئاً في أية بقعة من بقاع الأرض ، لأنها ستحمل معها نور الحياة وأمل الراحة لجميع المتعبين !

كذلك يُسرّ المسيحيون لو جدّد المسلمون فهمهم لدينهم وعملهم بتعاليمه ، ولا يرون في هذا خطراً إلا على سرّاق الشعوب !!

لنبدأ من ديارنا ، مهد النبوات والديانات ...

الشرق البريء من المطامع ، المتطلّع للنهوض ...

- ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝

أَلَا لِلَّهِ .... ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ .... ﴾ [الزمر : ٢ - ٣] .

- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .... إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ....﴾ [الزمر: ٣٩].
- ﴿.... فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].
- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].
- ﴿.... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى .... أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا .... وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾
قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .... ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾
[سبأ: ٢٤ - ٢٦].